دولة إسلامية شيوعية
فى القرن الرابع الهجرى

تتبوأ المبادئ الاشتراكية مكانتها بين النظم المعاصرة ، وتشق طريقها بنجاح إلى كثير من المجتمعات المتمدنة ، وتحظى بكثير من القوة والنفوذ العملى فى عدة من أعرق الأمم الديمقراطية الأوربية ؛ وتسيطر الفكرة الشيوعية وهى خلاصة الفكرة الاشتراكية وغايتها المثلى على نظام دولة أوربية عظمى معاصرة هى روسيا السوفيتية .

وإذا كانت الفكرة الاشتراكية تبدو اليوم من ناحية التطبيق العملى أحدث فكرة لتنظيم الدولة والمجتمع ، وإذا كانت روسيا السوفيتية من حيث الوضع التاريخى هى اول دولة متمدنة تقوم على الفكرة الاشتراكية وأول دولة متمدنة طبقت الفكرة الشيوعية بصورة عملية ، فإن ذلك لا ينفى أن الفكرة الشيوعية ، كأساس لتنظيم الدولة والمجتمع هى فكرة قديمة مثلت فى التفكير الإنسانى منذ أقدم العصور .

ففى جمهورية أفلاطون نجد شرحاً للمجتمع الشيوعى الذى تصوره الفيلسوف ، وهو يشير إلى نقص النظم الاجتماعية القائمة فى عصره ، ويقول بوجوب تغييرها من أساسها ، وأن يقام مجتمع تسوده المساواة العامة فى ظروف الحياة تمحى فيه الفوارق الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء . ولم يكن المجتمع الذى تصوره السير توماس مور فى كتابه المثالى الشهير Utopia فى القرن السادس عشر سوى مجتمع شيوعى بكامل معانى الكلمة يقوم على شيوع الثروات ووسائل الإنتاج .

ولم تقف الفكرة الشيوعية فى المجتمعات القديمة عند حد الدعوة المجردة ، ولكنها طبقت بالفعل بصورة عملية فى أحيان كثيرة . ففى عصور المسيحية

الأولى كانت ثمة جماعات نصرانية تطبق النظام الشيوعى فى حياتها . وفى العصور الوسطى كانت ثمة جماعات وطوائف كثيرة ولا سيما الهيئات الدينية وجماعات الرهبان تعيش فى ظل الشيوع .

بل لقد غزت الفكرة الشيوعية المجتمع الإسلامى ذاته وهو فى ذروة قوته ونضجه ورسوخه : غزته فى أوائل القرن الرابع الهجرى على يد طائفة من الدعاة الغلاة الذين اعتنقوا مبادئ دينية واجتماعية جديدة متطرفة ، ونجحوا فى إقامة دولة من طراز جديد تقوم على نوع من الشيوع الاقتصادى والاجتماعى .

أولئك هم طائفة القرامطة الذين ظهرت دعوتهم الثورية لأول مرة فى أحواز الكوفة فى أواخر القرن الثالث الهجرى . وكان فى مقدمة دعاتها رجلان يحيط بأصلهما الغموض ، هما الفرج بن عثمان القاشانى المعروف بذكرويه ، وزميله وتلميذه حمدان الملقب بقرمط [1] وهو الذى غدا من بعده إمام المذهب وزعيمه . ولم تكن دعوة قرمط فى البداية سوى طرف من الدعوة الإلحادية العنيفة التى شهرها عبد الله بن ميمون فى جنوبى فارس باسم الحركة الشيعية فى أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى . وكانت مثلها تقوم على الدعوة إلى إمام من آل البيت هو المهدى الذى يملأ الأرض بعدله . وكانت الفكرة الدينية فى الواقع قوام كل دعوة جديدة تبدو فى المجتمع الإسلامى للقيام بأية محاولة لانتزاع السلطة السياسية . وكان الدين دائماً عضد السياسة ودعامتها الأولى . ولم يشذ داعية القرامطة عن هذه القاعدة ، فألقى إلى صحبه وأنصاره تعاليمه الدينية فى صورة أوامر وتعاليم جديدة سواء فى التحريم والإباحة ، فعدل أحكام الصلاة والصوم ، وأباح شرب الخمر ، وفرض الجزية على أنصاره إلى غير ذلك من التعاليم والبدع الجديدة التى يتميز بها مذهب القرامطة .

وقد انتهت إلينا عن فلسفة القرامطة ومراتب دعوتهم أقوال كثيرة متضاربة . بيد أنه يكاد يكون من المجمع عليه أنها فلسفة مادية تقوم على تعاليم الباطنية ومذاهب الدهرية ، وأساسها ترك العبادات والمحظورات ، واستباحة المحرمات . وأما وسائل الدعوة فقد رتبت على عدة مراتب خمس أو سبع أو تسع وفقاً لمختلف

---

(١) يرى بعض الباحثين أن كلمة « قرمط » ربما اشتقت من لغة القبائل الأرميذية بالجزيرة ومعناها « المدلس » (دائرة المعارف الاسلامية فى مقال القرامطة) .

الروايات ، تبدأ بالتفرس والتأنيس والتشكيك وتنتهى بالخلع والنسخ ، أو بعبارة أخرى تنتهى بنسخ العقائد المقررة وهدم الأديان .

على أنه يبدو مع ذلك أن دعوة القرامطة كانت تشتمل على برنامج سياسى واجتماعى وثقافى منظم ، يقوم على العقل والتسامح والمساواة الاجتماعية والاقتصادية . وهذه الناحية من تعاليم القرامطة هى التى تعنينا فى هذا البحث قبل كل شىء . ذلك أن المساواة الاجتماعية والاقتصادية التى غلبت على مجتمع القرامطة كانت فى ذاتها بدعة جديدة فى تعاليم الفرق الإسلامية . ويرى الأستاذ ماسنيون أن مجتمع القرامطة الثورى الذى قام فى جنوبى الجزيرة (العراق) كان يقوم على أساس شيوعى[1] . والواقع أن قرمط داعية المذهب وإمامه الأول ابتدع أصولاً وقواعد جديدة لتنظيم مجتمع إسلامى جديد من أنصاره يقوم على الإباحة والشيوع ، ففرض على أنصاره فى البداية ضريبة عامة ، ثم ضوعفت هذه الضريبة حتى كادت تستغرق الدخل الفردى ، ثم انتهى بأن أقنع أنصاره بمزايا الشيوع وإلغاء الملكية الفردية ، واشترط على الصحب والأنصار وضع الأملاك الخاصة فى ملكية عامة أو ما يسميه دعاة المذهب « بالألفة » . ونظم الدعاة فى كل مكان وجدت فيه طائفة من الأنصار مجتمعاً شيوعيًا حقيقيا ، ولم تلبث هذه الدعوة الشيوعية أن انتشرت بالأخص بين العمال والفلاحين فى جنوبى الجزيرة كما انتشرت فى بعض أنحاء خراسان وسوريا واليمن .

ولم يلبث مجتمع القرامطة أن تحول فى ظل هذه النزعة الشيوعية ، وفى ظل هذه الإباحة المطلقة ، إلى عصبة خطرة من الخوارج والناقين ، تستحل الأموال والأعراض ، وتنشر الدمار والرعب فيما حولها من الأنحاء . ولم تلبث أن نشبت بينهم وبين جند الخلافة العباسية معارك دامية . وذاعت دعوتهم فى قلب الجزيرة العربية ، وطاردتهم جنود الخلافة إلى الداخل وهم يزيدون قوة وجموعاً . وظهرت قوتهم وجرأتهم لأول مرة بصورة خطرة حينما زحفوا على مدينة دمشق سنة ٢٩٠هـ (٩٠٢م) ولم يُرَدُّوا عنها إلا بعد معركة طاحنة اشتركت فيها جند مصر والشام . واستفحل أمر القرامطة فى أنحاء البحرين ، والتفوا هنالك حول زعيم

---

(١) فى دائرة المعارف الاسلامية فى مقالة عن القرامطة .

قوى صارم العزم، هو الحسن بن بهرام المعروف بأبى سعيد، وزحفوا على البصرة وهزموا جند الخليفة فى ظاهرها. ثم أنشأ سليمان أبو الطاهر ولد أبى سعيد مدينة الأحساء وجعلها عاصمة لإمارته. ثم غزا البصرة مرة أخرى، وتجرد بعد ذلك للبطش بقوافل الحجاج والتجار، وبسط سلطانه على أواسط الجزيرة العربية، واستمر أمره فى ازدياد. وفى سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) سار أبوالطاهر إلى مكة وفتك بالحجاج، واقتحم البيت الحرام، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى الأحساء، فارتاع العالم الإسلامى لذلك الاجتراء. ولم يردّ القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد جهود كثيرة بذلتها الخلافة العباسية والخليفة الفاطمى فى ذلك السبيل. ولبث أبو طاهر سيد البحرين زهاء ثلاثين عاماً يتردد بالإغارة والنهب على مدن العراق والشام، حتى اضطرت حكومة بغداد ذاتها أن تقدم له إتاوة سنوية لتنجو من عدوانه.

ويمكننا أن نعتبر سليمان بن الحسن مؤسس دولة القرامطة الحقيقى ومنظم دستورها السياسى والاجتماعى، وعلى يده اتخذت فلسفة القرامطة وتعاليمهم شكلها النهائى، وطبقت بمنتهى العنف والشدة. وقد ورد فى رسالة «القاموس الأعظم» التى وجهها بعض أئمة المذهب إلى سليمان وصف مجمل لأصول الدعوة ووسائل إذاعتها قال فيه: «ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن آنست منه رشدا فاكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا. وإنا وإياهم مجمعون على أن نواميس الأنبياء، وعلى القول بقدم العالم لوماً ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا يعرفه». وجاء فيها أيضاً إبطال القول بالميعاد والعقاب، وأن الجنة هى هى نعيم الدنيا، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد... الخ.

ثم يقول الداعى لسليمان بن الحسن: «وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس. فهنيئاً لكم بما نلتم من الراحه عن أمرهم»[1].

---

(١) الفرق بين الفرق لعبد الظاهر البغدادى ص ٢٧٨ و٢٧٩ و٢٨٢.

ووصل القرامطة إلى ذروة قوتهم فى اواسط القرن الرابع الهجرى حين زحفوا على الشام وعاثوا فيها ، ثم زحفوا على مصر سنة ٣٦٣هـ (٩٧٣م) فى عهد المعز بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم ، ولم يُرَدُّوا عنها إلا بعد معركة طاحنة بالقرب من بلبيس . وكان القرامطة ينضوون فى بادئ الأمر تحت لواء الخلافة الفاطمية باعتبارهم من فرق الشيعة الإمامية . ولكن المعز أنكر عليهم بعد ذلك جرأتهم وعبثهم واعتداءهم على أراضيه ، ونشبت الخصومة بينه وبينهم . ولم ينقطع خطر القرامطة على مصر إلا فى عهد ولده العزيز حيث رُدُّوا عنها وعن الشام بصورة نهائية

وما نود أن نلفت النظر إليه بإيراد هذه اللمحة الموجزة عن تاريخ القرامطة هو أن القرامطة استطاعوا ان ينشئوا بالرغم من مبادئهم الغريبة المتطرفة فى قلب الجزيرة العربية مجتمعاً منظماً متماسكاً ، ودولة بلغت من التنظيم والقوة ، أن استطاعت أن تهدد الخلافة العباسية فى الشرق والخلافة الفاطمية فى الغرب ، وأن تتخن فى أنحاء الجزيرة العربية شمالاً وغرباً ، وأن تصل فى غزواتها إلى قلب الأراضى المصرية . وقد كانت هذه الدولة العربية التى تتسم بسمة الإسلام دولة خارجة على سائر الأمة الإسلامية ، تقوم على أصول وتعاليم تنكرها تعاليم الإسلام الصحيحة السياسية والاجتماعية فضلاً عن الدينية . كانت دولة عسكرية شيوعية ، تقوم على شيوع الثروات الطبيعية والمكتسبة يوزع الإمام منها ومن ثمراتها على رعاياه وفقاً لمشيئته . ولا تحترم مبدأ الملكية الشخصية الذى يعتبر قاعدة أساسية فى تكوين المجتمع الإسلامى الاقتصادى ، والذى تحيطه الشريعة الإسلامية بضمانات قوية . بل لقد ذهب القرامطة فى تطبيق مبدأ الشيوع إلى حد الإباحة المروعة ، فأباحوا شيوع النساء ، وكانت المرأة عنصراً بارزاً فى مجتمع القرامطة يسمح لها بالانتظام فى سلك الدعوة والتدرج فى مراتبها . وكان الدعاة من المراتب العليا يطبقون هذا النوع من الشيوع المثير بطريقة منظمة ، وكانوا يعتبرونه نوعاً من الكمال الذى يقوم على أقصى درجات الصداقة والإخاء . ويروى لنا ابن الأثير عن زعيم القرامطة أبى سعيد حادثاً من هذا النوع يؤيد انحدار القرامطة إلى هذه الفوضى الأخلاقية المروعة ، التى كانت عنوان مذهبهم[1] . وقد كان من الطبيعى أن تقترن هذه الإباحة المغرقة

(١) ابن الأثير (مصر) ج ٧ ص ١٦٣ وراجع أيضاً الفرق بين الفرق ص ٢٨١ .

بإلغاء أحكام الإسلام الأساسية من الصلاة والصوم وسائر الفرائض الأخرى .

ولقد كانت هذه الناحية الدقيقة من الشيوع التى اعتنقها القرامطة فى القرن الرابع الهجرى من أشد ما تهاجم به الشيوعية الحديثة ؛ إذ يقول خصوم الشيوعية إن شيوع الثروات ووسائل الإنتاج يؤدى إلى شيوع النساء . ويرد ماركس إمام الشيوعية فى البيان الشيوعى على هذه التهمة ويفندها ، ويحاول أن يدلل على أن المجتمع البورجوازى يتخبط فى معترك الفوضى الأخلاقية ، ويقوم فى الواقع على نوع مستتر من شيوع المرأة ، وأن الشيوعية ترمى بتحرير الطبقات الدنيا من الفقر والعوز ، إلى تحرير النساء وإلغاء هذا البغاء المستتر الذى يحميه النظام البورجوازى (الراسمالى) .

وقد تأثرت فلسفة القرامطة فيما يبدو بمبادئ الخوارج الكلامية والسياسية . وقد كان بين الخوارج فرق ترى إباحة شرب الخمر والسرقة وغيرها إذا ارتكبت بغير إصرار[1] ومن جهة أخرى فقد كان بين الخوارج من يرى أنه لا ضرورة لتنظيم المجتمع أو أن يقوم بين الناس إمام أو حكومة . وإنما يجب على الناس أن يتعاطوا الحق فيما بينهم . وهذه بلا ريب هى اللاحكومية الحديثة بعينها .

وعلى أى حال فإن هذه الإباحة الدينية والسياسية التى غلبت على مذهب القرامطة منذ البداية لم تكن إلا طوراً من أطوار الثورة على الإسلام وعلى مبادئه ونظمه . وهى ثورة بدأت مبكرة جدًّا منذ قامت الحركة الشيعية وتسربت إليها تعاليم الملاحدة والمتآمرين السياسيين ، ولا سيما الدعاة الفرس أئمة هذه الثورة الإلحادية وأكبر دعاتها . وقد كانت هذه النزعة الإباحية المغرقة تقترن عند القرامطة بالعنف الذريع ، فكان ذلك مما يضاعف خطرها على المجتمع الإسلامى . وقد استطال هذا الخطر السياسى والاجتماعى زهاء قرن ، ولم ينحل مجتمع القرامطة إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى بعد جهود ومعارك عنيفة ، اشتركت فيها الدولة العباسية ومصر الفاطمية على ما بينهما من أسباب الخصومة والتباعد .

محمد عبد الله عنان

---

(١) هم الأزارقة (الشهرستانى ج ١ ص ١٦٦)